الفصل الرابع

قراءة سوسيولوجية لواقع الرابط الاجتماعي وأزمة التنشئة الاجتماعية في الوطن العربي

يعد الرابط بين الآباء والأولاد، موردا لمستقبلهم الاجتماعي والمالي والثقافي، لكن في الواقع الراهن لم يعد الآباء حريصون في توجيه اولادهم وأصبحوا يجنبونهم خوض تجربة الخطأ لذلك نجد جيل الأطفال والمراهقين اليوم أكثر أنانية وانطوائية من الاجيال السابقة.

لقد تغير مضمون الأسرة المعاصرة مقارنة بالأسر في الأزمان الماضية لتصبح مجرد حاضنة لأفراد يريدون فقط العيش معا، كما أنها اصبحت تتسم بهروب الأبناء من العلاقات المتعارف عليها وفي المقابل أصبح الآباء، يدفعون اولادهم للحياة الفردية من خلال تزويدهم بالهواتف النقالة والحواسيب الفردية

لقد صدرت العولمة نماذج الفردانية للوطن العربي ولاسيما الجزائر حيث بقيت ضمن هذه الظروف في منتصف طريق الحداثة، مما ولد تشنج العلاقات بين الآباء والأبناء(صراع الأجيال) لتضفي الى سلوك العنف معهم أو التخلي عن تربيتهم.

سنحاول ، تسليط الضوء على هذا الواقع الاشكالي بشيء من التحليل النظري ما بعد الحداثي وكذا على أساس ملاحظات الحياة العائلية اليومية.

1.الأولياء وأطفالهم في الوطن العربي وغموض متطلبات الرابط الاجتماعي

محاولة تحليل العلاقة بين الأولياء وأطفالهم في البيئة العربية من الناحية السوسيولوجية. يستدعي أولا، معرفة وحصر الأطر العامة لهذه العلاقة التفاعلية وذلك من خلال النظر للسياق الأسري، كفضاء للنضال الفردي من جهة وللجماعة العائلية مع بقية الجماعات داخل نفس المجتمع، فالعلاقة بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأولياء و الأبناء ليست معزولة عن كثير من العناصر الأساسية. التي تدخل في رسم الهوية الفردية والجماعية على قاعدة من العلاقات ما بين الجماعات من جهة وبينها وبين النظام الاجتماعي الكلي.

من بين أهم العناصر الداخلة في رسم النشاط الفردي والجماعي داخل الأسرة هناك البعد الوجودي. وهو مجال صراعي في الوطن العربي، تتحدد من خلاله الميزة الفردية سواء للوالدين أو للأبناء وهما أثناء عملية التفاعل، لا يكونان على نفس المسافة مع تاريخ التجربة الوجودية وليسا على نفس الالمام بمتطلبات النظام الاجتماعي غير المستقر والمتحول باستمرار.

هذا الممر الإشكالي في رسم الذات، يجعل الأسرة ككل تعيش حالة ضغط، يكون في أوجه عندما يقع الطرفان (الأولياء، الأبناء) في التجربة الاجتماعية لخيارات التعبير عن الوجود المتخالف والمفاوض في كل شيء، حتى مع القيم الدينية والآداب والاخلاق المجتمعية.

في هذا الإطار تحاول الأسرة العربية تحمل عبء الالتزام بخلق النظام وايجاد المخارج السلوكية والقيمية للأبناء، وتوجيه التجارب الفردية لخفض الصراع مع المجتمع الكلي.

في هذا المجال تتدخل دعائم الرابط الاجتماعي كوسيلة، توجه الأفراد للالتزام التفاضلي مع معطيات الجنس والسن (الأجيال) والأوساط الاجتماعية. هذه العملية التفاعلية تنشأ في فضاء التجربة اليومية وبالنظر للبيئة العربية القابعة تحت مؤثرات كثيرة ، ومن كل جانب فيها ما هو ديني، اقتصادي، ثقافي سياسي والأهم أن الأسر كجماعات، تتحرك ضمن هذا المجال المعقد على قاعدة محاولة التكيف والتجانس مع متطلبات الرابط الاجتماعي.

لكن يحدث ضمن هذا المرور، أن الخاص من المشاعر والعواطف يتسلل الى السياق العام . كما تعود العملية في الاتجاه المعاكس، بأن يتسلل التحديد الثقافي للوجود الخاص. من هذه الزاوية يمكن مراجعة مسألة الحداثة، التي تعززت بميلاد وسائل الفردنة ووسائل النشاط الخاص، المناهضة للضبط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاجتماعي. وهذا ما جعلنا نطرح الاشكال ضمن الوسط الأسري العربي الذي يتميز بتخلف التفاعل الفردي مع مؤثرات الفردنة، على أساس تخالف الالتزام مع النظام كمعنى محدد بالتزامات الرابط الاجتماعي، والذي يحاول الأولياء التمسك به بقليل من التفاوض، على أساس العلاقات ما بين الاسر والجماعات، التي تحدها روح التجانس

لكن بالنظر الى المواقع الثقافية، فان الأولياء لا يكونون على نفس القدر من مستلزمات الحداثة خاصة في بعدها الثقافي. و في الطرف المقابل، فان الأولاد هم أيضا أكثر نزوعا لتملك وسائل الفردنة (هواتف، حواسيب، غرف خاصة...) وفي ذات الوقت هم يدركون العلاقات مع الأولياء ومتطلباتها العاطفية وكيف صارت تنسج بعيدا عن التزامات الدور الوالدي في تحمل مسؤولية التربية داخل الأسرة،... " لأن الثقافة لم تعد قادرة على خلق التوافق بين التجربة الفردية والعلاقة مع العالم".. (Dubet f., 1994, p. 73)

2. الأولياء والأبناء في البيئة العربية وانسداد الاتصال كنهج للمواطنة

ترتبط المواطنة بوجه عام بقضية المدينة والاتصال السياسي وهو الفضاء المادي والاجتماعي، الذي يشكل حاضنة كبرى، تؤلف مضمون ومستوى الرابط الاجتماعي.

يطرح الاتصال في ارهاصات الفكر السياسي الأول، بما جاءت به تأملات الفيلسوف ارسطو، والتي تلاها التفكير العام لكيفيات تنظيم الجماهير الغفيرة في البيئات الحضرية الآخذة في النمو. " ففي المدينة ، العمل الاتصالي التواصلي هو الذي يؤسس عظمة الانسان الاجتماعية وليس العنف الجسدي وفي التنظيم السياسي نجد أن الكلام يكتسب أكثر فأكثر أهمية نسبة الى العمل العنيف أو المنتج" (سبورك، 2009، صفحة 154).

ان الدائرة الخاصة لتنشئة سلوك المواطنة، يؤسس تفاعليا في بيئة المنزل حيث يمتحن الأفراد الكبار في علاقاتهم بالصغار بمدى تقديم الكلام التواصلي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل العنف بشتى اشكاله وهو مجال تفاعلي تفرضه حياة المدنية، سواء بصورتها القديمة أو الحديثة.

غير أن فعل الكلام في الأسرة يحتاج الى رأسمال اقتصادي وكذا رأسمال ثقافي، هذا في إطار بنية أسرية تظهر فيها عملية التملك الخاص لموارد الحياة الاقتصادية، بما يجعلها سهلة وأمرا ممكنا."إن عدم الانسجام بين هذه الصورة الأسرية وبنية النظام السياسي تجعل فعل المواطنة وخاصة في شقه التشاركي ضعيف ذلك" أن الحياة في البيوت (مساكن الأسرة) تتناسب مع ضرورات الحياة بالمقابل ان التنظيم السياسي هو امبراطورية الحرية بالنسبة لأولئك الذين ينتمون اليه" (سبورك، 2009، صفحة 154).

إذا وضعنا المدينة العربية أمام تحدي الحداثة ومتغيراتها، فإنه يصعب التحكم في توحيد الارادات الفردانية، خاصة اذا لم يقنع أفراد المجتمع الصغار منهم على وجه الخصوص، بمستوى العدالة الاجتماعية (سوق الديبلوم وتوزيع الثروة على سبيل المثال) حيث تضعف أمام هذا العجز الكبير ادوات التنشئة الاجتماعية.

ضمن هذا المشهد السوسيولوجي، الذي يصف الظروف المحيطة بموضوع الرابط الاجتماعي، تتحدد اشكالية صعوبة الأولياء في السيطرة على تمرد الأبناء خاصة في البيئات التي يكثر فيها التهميش ويفقد فيه الأولياء وخاصة الأب القدرة الاقتصادية في عالم يتميز بالا عدالة.

هنا يصبح الأولاد متحررين بشكل عنيف، والأولياء في حالة استقالة لفقدان الرغبة في الكلام، نظرا لتدهور صفة التملك وهذا المشهد يمكن أن نلاحظه، عندما نفحص مساحة الكلام التواصلي بين الوالدين والأبناء خاصة في البيوت التي لا تجد صياغة مقنعة لرابطها الاجتماعي العام في منظومة كبرى لتفعيل المواطنة من بابها الاجتماعي كأسلوب للمشاركة وخفض التوتر.

ان انتشار وسائل التواصل الاجتماعي وشيوعها بين أفراد الأسرة الواحدة، أطفالا وكبار، أدى الى زيادة طول الصمت الاجتماعي وغياب الكلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التفاعلي، ضف اليه التوتر وعدم الثقة في بنية النظام الكلي الذي لم يعد موثوقا فيه كشرط بنائي لحماية الأفراد، أطفالا أم شيبا من آثار مفترضة، تمس القيم المتبقية للوجود الاجتماعي. مما أدخل الوالدين كما هو ملاحظ، في حالة من عدم الضبط الذاتي، فتخللت توجيهاتهم التربوية مطالب غير منطقية لا تعبر على فعل التنشئة بقدر ما تعبر عن خواء اجتماعي (بويحياوي، 2013) تعكسه عدم قدرتهم على فهم الرموز الناشطة في اطار نظام تفاعلي، تغيرت فيه الرموز وأعيد فيه ترتيب الأدوار ونقصد هنا، تراجع الأداء المؤسساتي للأسرة أمام الخطاب الديني أو الخطاب المدرسي. فالتبست الخطابات الاجتماعية وتناقضت، مما صعد من حالة التوتر، فكان ذلك دافعا لانتاج العنف خاصة لدى أولئك الرافضين لوضعهم الاجتماعي، غير المفهوم وهو الذي يخلق حالة التهميش، التي بدورها عبارة عن حاضنة سيكولوجية ينمو فيها العنف ليصبح أسلوبا تواصليا لخفض التوتر بين أفراد الأسرة الواحدة.

ضمن هذا الفضاء، يصبح هناك خوف من مغادرة الحيز الاسري لدى الأبناء، لتفادي احباطات المكانةن حيث يزيد وضعهم تشنجا خاصة في العائلات الفقيرة، إذ يفقدون الرغبة في المشاركة السياسية او الاجتماعية بالنظر الى ضعفهم المادي والرمزي. فيصبح مجالهم الحيوي هي احياءهم السكنية المهمشة (Dubet F. , 2008) مما يزيد في وتيرة الضغط، بعد المخالطة مع ابناء الحي الذين يعيشون نفس الظروف.

بالنظر الى الظروف المحيطة والمؤدية لعدم فهم وتحكم الأسر في معادلة الذات وبالتالي معادة الرابط الاجتماعي، فإن ذلك، سيفقد حلقة الوصل بالمجتمع السياسي، كمساحة للتعبير عن الذات وسيحل معها خطاب العنف كتعبير عدواني، يصف الفشل في ادارة الحياة الاجتماعية، في البيئات الحضرية خاصة الكبرى، التي تسحب ساحة لانتشار العنف بأشكاله المختلفة من ضرب واغتصاب خطف او انتحار في حق الطفولة كأضعف فئات هذا المجتمع.

سيرفع الطابع التسييسي على مختلف جوانب ابداء الرأي وصياغة الاوامر والنواهي بين الاولياء واطفالهم، ليكتسي التفاعل بينهم، طابع صراع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأجيال الذي يرسمه تباعا في الطموحات وتباين في المرجعيات الكبرى للسلوك والمنصور العام للنظام وسبل الانخراط فيه. يقول بورديو:"... ما كان حصيلة جهاد على مدى الحياة بأكملها لدى الجيل الاول، أصبح يمنح للجيل الثاني على الفور حال الولادة..." (بورديو، 2012، صفحة 243) وهو في هذا الوصف، يرسم لنا عمق صراع الاجيال في بعده السوسيولوجي، والذي يولد ما يطلق عليه العنصرية بين الآباء والصغار، حيث يزداد وضوحا في حال الطبقات التي فقدت مكانتها لاسيما في مراحل التحولات الاقتصادية الحادة والدخول في مجال النفعية الاقتصادية والانغماس في كماليات الحياة بالنسبة للطبقات المستريحة من ناحية الموارد المالية والثقافية.

كثيرا ما تنحصر دراسة العنف على الأطفال، في مجالات السلوكيات الممارسة عليهم بصفة مباشرة من ضرب و تعذيب أو اختطاف و اغتصاب، وفي المجال العائلي كثيرا ما تعالج الظاهرة كسلوك ضد اجتماعي أحادي الاتجاه من الوالدين تجاه الأطفال. غير أنه علينا كذلك فحص التغيرات العميقة للأسرة في البيئة الحضرية خاصة، وفهم تجليات التفاعلات العامة لجيل الأولياء وجيل الاولاد مع هذه المدنية باستخدام مرجعيات التحليل السوسيولوجي، التي لا تشذ فيها البلدان العربية عن تجاذباتها خاصة في عالم تحكمه قيم العولمة. ومهما كانت هناك من اختلافات بين المجتمعات في مستوى المدنية والخصوصية الثقافية، الا أن النواميس العامة للتغير الاجتماعي تمارس صدمة اجتماعية شاملة، عادة ما تصمت فيها الألسن في حالات الافلاس الثقافي الاجتماعي وانعدام الحوار بين الأولياء وأبناءهم، ليعوض بالعنف بأسلوب الآباء، الباحثين عن استرجاع التوازن في رابطهم الاجتماعي وأبناء منساقون بطريقة عنيفة لقطع الصلة مع قيم المجتمعية، غير المنتجة لأن أجيال اليوم لم يعد الانسجام مع النظام على لائحة اهتماماتهم حتى ولو كان النظام في أصغر صوره وهو الأسرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلاصة

في معرض التفكير الاجتماعي والإنساني بصفة عامة والذي صغناه حول مسألة الرابط الاجتماعي توضح لنا، ارتباطه الوثيق بمستوى معرفي، رافق تطور علم الاجتماع الحدائي على وجه الخصوص وهو علم اجتماع الهوية، بشتى تخصصاته وتياراته ونظرياته وهي كانت حاضرة كعنصر محرك للفكر الفلسفي والعلمي في شتى مراحله وتطوراته، كما أن التحولات السريعة التي شهدها العالم خاصة بعد الحرب العالمية الأولى وكذا نتائج الثورة الصناعية، إضافة لعصر العولمة شكلت عناصر وجهت التفكير في مسألة الهوية وجعلته يتجدد بأطروحات أكثر تركيز ووضوح، ومن ثم أعيد التفكير في مفهوم الإنسان كمفهوم مركزي، حيث دارت حوله الأفكار والفلسفات وتشعبت معه الأطروحات والتوجهات النظرية تبعا للمرجعيات الابستيمولوجية والمنهجية وتماشيا مع نتائج التغير الاجتماعي لاسيما مع انتشار تكنولوجيا الرقمنة .

ختاما يمكن القول أن كافة الحقول المعرفية، قد تناولت موضوع الرابط الاجتماعي ، بإسهامات متقاطعة ومتشعبة تعبر على حقيقة أساسية، وهي أن الذات الإنسانية عبر تشكلها في محيطها الاجتماعي، تفرز عدة ملامح وتجليات تتأثر وتؤثر باستمرار في عناصر المحيط وبأشكال متعددة. كما أعطى علم الاجتماع أبعادا أكثر عمقا لمفهوم الهوية، فهي لم تعد تعبر فقط على السلوك الفردي المعزول، بل هي كل مركب من التفاعلات الشخصية ضمن فضائها الاجتماعي والذي يتجلى في موضوع الرابط الاجتماعي. ذلك ما يشير الى القدرة على تشكيل صورة واضحة عن الذات في خضم التحولات العميقة التي يشهدها الواقع المحلي والعالمي مع ما يفترضه من القدرة على لمس هذه الصورة عبر كافة تجليات الوجود الفردي في مسرح التفاعلات الاجتماعية المحلية والعالمية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner